ملامح الرومانسية
عند الفنان
د. جماع علي أحمد أحمد
مدرس الأدب والنقد

أصبحت الرومانسية فى الآداب العالمية تحتل مكانة كبيرة ، وهى الآن تمثل مذهبا أدبيا له أتباعه وأنصاره ، ولذلك كان لهذا المذهب اهتمام بالغ بما ينطوى عليه من جديد فى الاتجاهات الأدبية ، فهو ثورة على القديم والحد منه والدعوة الى وجود لون أدبى جديد دعت اليه ظروف الحياة ومتطلبات المجتمع .

وقد ظهر هذا المذهب فى فرنسا قبيل مشرق القرن التاسع عشر بقليل بعد الثورة الفرنسية الدامية ، حيث فزع الأدباء والشعراء الى نفوسهم ووجدانهم يلوذون بتجاربهم الباطنيه ، ويهتمون بمشاهد الجمال والطبيعة ، ويميلون الى الأصالة والابتكار والتجديد ، متحررين فى أفكارهم وأساليبهم منبعثين فى آثارهم عن انفعال قوى وعواطف متقدة ومشاعر حية ، وهذه التسمية « الرومانتيكية أو الابداعية » انجليزية أطلقها « ستندال » فى كتابه راسين وشكسبير » وعلى نهج هؤلاء سار كثير من الأدباء والشعراء الذين ظهروا فى فرنسا وجددوا شباب الشعر والأدب باللون الغنائى الوجدانى النفسى العميق يقول ستندال : ان الرومانتيكية هى الفن الذى يقدم

للشعوب آثارا أدبية من شأنها أن تحدث فيها أعظم لذة ممكنة ، ومن شعراء هذا المذهب فى فرنسا لامرتين ، وهوجو ، وموسيه وسواهم(١).

ومن جهة أخرى نرى أن كلمة رومانسية ترجع الى اللغة الفرنسية ، وكان لفظ رومانسى الفرنسى يطلق فى العصور الوسطى الى قصص المغامرات شعرا كان أو نثرا ، ثم غزت انجلترا ، وكانت كلمة « رومانتيك » يقصد بها فى الانجليزية قصص المغامرات وما يرمز لها ، ثم انتقلت الى ألمانيا وكانت تشير الى كل ما يتصل بعامل الفروسية فى العصور الوسطى ، ثم انتقلت الى ايطاليا ، ثم اسبانيا فى عام ١٨١٥ م ، وأصبح نهاً الى جانب كونها مذهبا أدبيا جديدا معنى آخر .

اذ كانت تدل على الانسان المشبوب العاطفة المستسلم لمشاعره ، ثم بدأت تشير الى الفردية والذاتية ، فالأدب الرومانتيكى أدبا ثائرا يهتم بالمشاعر ولا يحترم التقاليد اذا وقفت فى وجه المشاعر الانسانية (٢) .

وقد وجد هذا المذهب مناخا مناسبا له فى فرنسا ، فالتفت حوله الأدباء والشعراء ، فنجدهم قد « ثاروا على القواعد الكلاسيكية لأنهم وجدوا فيها ذلك النوع من الالتزام الجبرى الذى يجعل من القاعدة قيدا لا فكاك منه ، ولكنهم لم يتمردوا على القواعد التى من شأنها أن

---

(١) راجع أصول النقد للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ٥٠ مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) المرجع السابق ٥١ .

ترشـــد الى الفن وتعينه على أداء وظيفته الجمالية ، فالفن الذى يصم أذنيه عن نصـــائح القـــواعد والقوانين يتحـــول الى فوضى لا نظام لهـــا (١) •

لقد اتسعت دائرة هذا اللون الأدبى فى فرنسا اتساعا عظيما بمـــا كان يدعو اليه من ثورية وحرية للفكر والتغنى بالعواطف الفردية التى ظلت مكبوتة تحت سيطرة الكلاسيكية التى تختفى بالاتجـــاه الاتباعى وتسير فى ركب السلف من الأدباء الشعراء •

فالرومانسية الفرنسية أو الرومانتيكية الانجليزية أو ما نســـميه بالمذهب الابتداعى له جذور فى أدبنا العربى وأسس قوية أخذ منهـــا الغرب واستفاد افادة بالغـــة من آدابنا لما كان بينها من اتصـــال عبر القرون الماضية وهذا اللون ما نسميه بالأدب الخالص فى العربية ، فهو الأدب الغنائى أو الوجـــدانى ، لأن مدرســـة الرومانتيكيين فى الغالب لا يتحدثون الا عن أنفسهم ، وأدبهم مداره العاطفة الخـــالدة والذهن المشتعل وطابعه الذاتية والتأمل والصوفية الحالمة والجنوح الى النفس ومصاحبة الآلام والأحزان ، والفزع الى الدموع والزفرات والاندماج مع الطبيعة الملهمة (٢) •

ومن هنا كانت لنا تلك النظرة التى تقرب وجه الشبه بين الادب العذرى والادب الرومانسى وزاد ذلك الامر لدينا تأكيدا ما كان للعرب من نهضة أدبية غزت أوربا •

---

(١) مذاهب النقـد وقضـاياه للدكتور عبد الرحمن عثمـان ٣٤١ ط ١٩٧٥ م •

(٢) أصول النقد للدكتور خفاجى ٥١ •

وأخذ أدباء الغرب من نفائسها الكثير ونسبوه الى أنفسهم زاعمين أنه ولد فى بلادهم وتربى بين أحضانهم •

الصلة بين الآداب العربية والآداب الاوربية :

اتصل العرب بالبلاد المجاورة منذ أمد بعيد ، وامتدت الفتوحات الاسلامية شرقا وغربا وغزت الحضارة العربية هذه البلاد وخاصة البلاد الاوربية التى ازدهرت فيها هده الآداب ، فالحضارة الاسلامية انتقلت الى أوروبا ، وكان لها الاثر الفعال فى حضارتها ونهضتها ، فهذه الكتب العديدة التى ترجمت الى اللاتينية حفلت بها المكتبات الاوربية منذ زمن مبكر ، وكانت شعاعا وضاء لمن أراد أن يتعرف على المعارف المختلفة ، وقد تناولت هذه الكتب بين دفاتها موضوعات أدبية ودينية وفلسفية وعلمية وغيرها •

فكان الفتح العربى لبلاد الأندلس الرافد الحيوى الذى صب هذا اللون من الغزل الرقيق فى بلاد أوروبا من الموشحات والأزجال التى انتشرت فى هذه البقاع ، فهذا الغزل الرقيق أو الرومانتيكى كانت تشع أضواؤه الأدبية من مراكز متعدده فى قرطبة وغرناطة وقرطاجة وطليطلة وغيرهما ، فارتوت عشائر هذه البلاد بما وفد اليها من الآداب العربية ، وأخذ يتنقل بين هذه المدن الأوربية فاعتنقه الكثير ، وذلك بعد أن ترجم الى اللغات المختلفة بواسطة الأقلية من اليهود أو الانتقال الى بلاط النصارى الأوروبيين وعن طريق صقلية التى نزل بها العرب ، ولما قضى الفرنجة النورمان على حكم العرب فى صقلية ، فانهم لم يقفوا على حضارة العرب هنالك ، بل كانوا عاملا فعالا فى نشر هذه الحضارة ، وقد كان النورمان يتذوقون الحضارة الاسلامية ، ويتوجون أنفسهم بعبارة « لا اله الا الله » ويتخذون علامة للملك

الاسلام « الحمد لله حق حمده » ويلبسون العمائم مثل العرب » (١) ٠

فالعرب الذين حكموا بلاد الاندلس ثمانية قرون غرسوا أصولا لهذا الاثر فى الاداب الاوربية نمى وازدهر بما سار عليه من تطور فنى ، فهذا اللون الرومانسى قد اتخذ شكلا متسعا ومشى فى طور جديد ساعدهم على ذلك ما عرفوه عن العرب من رقة أدبية تحدوا هذا اللون ، فاخذ شعراء (التوبادور) الذين ظهروا فى جنوب فرنسا فى اقليم « بروفانس » وكلمه التروبادور يتحدث عنها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه « دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى » ، فيقول : وكلمة تروبادور التى يتصفون بها مشتقة من كلمة « طرب » العربية والتى أضيفت اليها الأداة الدالة باللاتينية على اسم الفاعل وهى « أدور » فصارت « طروبادور » ، أى الشعراء المطربون (٢) ٠

ومن جانب آخر نرى أن الحملة الصليبية التى غزت الشام وظلت بها حقبة من الزمان أخذت الكثير من الآداب العربية ، لأنهم تعرفوا خلال هذه المدة على ما لدى العرب من نهضة فكرية وأدبية وعلمية استفادوا منها الكثير فالأثر العربى واضح فى الآداب الأوروبية ولا يستطيع منصف اغفال هذه الحقيقة ، فالعرب كانوا أساتذة لغيرهم

---

(١) راجع ابن جبير ٣١٥ ٠

(٢) دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى ص ٥٨ ٠

فى هذا الحب العنيف ، وذلك ما أثبتته الحقائق والأخبار الحقيقة عن طريق كتب الادب والشعر ، وبالرجوع الى كتب الادب والشعر وتاريخ الادب العربى نجد أن شعراء نجد وعلى الاخص شعراء بنى عذرة كانوا رواد فى المضمار وملهمين لغيرهم من الشعراء الأوربيين .

فهذا الأدب الرقيق الذى تغنى به شعراء العرب منذ أمد بعيد بحكم طبيعتهم وحياتهم البدوية الخالصة كان مصدر الهام وينبوع متدفق ارتوى منه شعراء البلاد الأوربية ، وتثقفوا بتعاليمه واتجهوا الى وجهته ، فالآداب سرعان ما تختلط وتمتزج وتتأثر بما حولها من آداب أخرى لأن الأدب نتاج فكرى نرى رواده دائما يهتمون بما يتوافد عليهم ليتعرفوا على الأذواق المختلفة والآراء المتباينة .

والحقيقة أن الادب بصفة عامة ، وجد مع كل أمة فيكون نتاجهم الادبى مكيف حسب بيئتهم وطبيعة حياتهم ، فما نحن بصدد الحديث عنه من اللون الرقيق هو بحق وليد البيئة العربية وتأثر به الغرب ، فهو عربى النشأة ، فلا يسوغ لنا أن نتناسى هذا الفضل العربى فى السبق الى الرومانسية ونقول بأن هذا اللون وافد الينا من أوروبا .

فيرجع الفضل للأدباء الأوربيين فى احتضان هذا الاتجاه الابداعى والعمل على تنميته وازهاره ، والذى سوغ لنا هذا القول ما رأيناه من توافق بين الرومانسية والعذرية ظهر ذلك فى سمات وملامح تكاد تكون مشتركة بينهما وأهم هذه الملامح ما يلى :

أولا : الشاعر الرومانسى يسلم قياده لقلبه ، لانه فى نظره هو منبع الالهام ، والذى يفتح أمامه فعاليق الوجود (١) .

فاننا لو نظرنا الى هذا الاتجاه الرومانسى لوجدناه ينطبق تمام الانطباق على الشعر العذرى ، وما ورد فيه من نماذج تحيل القلب هو محور الارتكاز تدور من حوله اتجاهات هؤلاء الشعراء فى تصرفاتهم ومعاملاتهم معمن حولهم ، فالحب الصادق لا يأتى الا من قلب ملىء بالمشاعر الفياضة والاحاسيس المتدفقة مما جعل قلوب هؤلاء المحبين لا تستجيب لتأنيب ولا تنظر الى لوم أو زجر يقول قيس بن الملوح فى ليلى (٢) :

ألا أيها القلب الذى لج هائما
بليلى وليدا لم تقطع تمائمه
أفق قد أفاق العاشقون وقد أتى
لما بك أن تلقى طبيبا تلائمه
فما بالك مسلوب العزاء كأنما
ترى نأى ليلى مغرما أنت غارمه
أجدك لا تنسيك ليلى ملمة
تلم ولا عهدا يطول مقامه

ففى هذه الأبيات نرى المجنون يخاطب قلبه الذى سيطر عليه هوى ليلى بأن يستيقظ من هذا الهيام ويفيق من هذه الغفلة التى يمكث

---

(١) راجع الاتجاهات الفنية فى الشعر الفلسطينى د. كامل السوافيرى ٣٠٢ .

(٢) تزيين الأسواق ٥٨ .

فيها ، ثم نراه يتراجع عن مطلبه الذى يخاطب به قلبه ويزيده منه ويذكر الأسباب التى تحول بين تنفيذ هذا المطلب ، فهو جاسم فى صمت وقابع من نطاق محدود لما ألم به من حب تجـاه تلك الحسناء التى استولت على خاطره فمحال أن ينسى هذا العشق الذى مس الشـــغاف وأذرك السويداء .

ويرسم لنا طريق هذاالحب داخل قلبه فيقول (١) :

لقد حجبوا ليلى وآلى أميرها
على يمينـا بـرة لا أزورهـا
فكيف وقلبى فى هـواها موكل
وقد فاض من أجفان عينى غزيرها
وفيها جفانى كل الف وصاحب
فياليت شعرى ما يكون مصيرها

ويبين لنا آثار هذا الحب على قلبه فيقول :

كأن القلب ليلة قيـل يغدى
بليـلة العامـرية أو يراح
قطـاة عـزها شرك فباتت
تجـاذبه وقـد علق الجنـاح
فلا فى الليل نالت ما ترجى
ولا فى الصـبح كان لهـا براح

---

(١) بسط مسامع السامر فى أخبار مجنون بنى عامر ٢٩ .

ان هذه الصورة التي رسمها المجنون لقلبه كفيلة على أن تترجم لنا مدى هذا العشق واثبات أن هؤلاء القراء كانوا يتجهون الى الأمور بقلوبهم وخواطرهم ، ومما يؤكد ذلك قول جميل بن معمر في بثينة (١) :

لها في سواد القلب بالحب منعة
هي الموت أو كادت على الموت تشرف
وما ذكرتك النفس يا بثن مرة
من الدهر الا كادت النفس تتلف
والا اعترتني زفرة واستكانة
وجادلها سجل من الدمع يذرف (٢)
وما استطرفت نفس حديثا لخلة
أسر به الا حديثك أطرف

فجميل في هذه الأبيات يذكر لنا مقدار هذا العشق والمدى الذي وصل اليه في قلبه ، فهي حبه وهي مناه وهي الوجود بأسره يتلذذ بحديثها ويستمع لنبراتها الساحرة وعباراتها الفاتنة التي بلى بها في دنياه ، فأصبح أسيرا لهذا الوجد المضنى والغرام القاتل .

ومن قيل هؤلاء . قال امام العذريين عروة بن حزام في حبيبته عفراء :

---

(١) ديوان جميل دار صادر بيروت ٨١ .
(٢) السجل : الدلو العظيمة مملوءة .

على كبدى من حب عفراء فرحة
وعيناى من وجـد بهـا تكفان
فعفراء أرجى الناس عندى مودة
وعفـراء عنى المعرض المتوانى
فيا ليت كل اثنين بينهما هوى
من الناس والانعـام يلتقيان
فيقضى محب مـن حبيب ليانة
ويرعاهمـا ربى فـلا يريان

ففى هـذه النماذج التى ذكرناها للشـعراء نرى أنهم يتصرفون وفق ما تمليه عليهم نبضات قلوبهم ، لأنهم جعلوا القلب هو الأساس ، والشاعر الماهر من يترجم الينا ما فيـه من أحاسيس ومشـاعر ، وهذا الطابع المميز للشـعراء العذريين أملته عليهم ظـروف بيئتهم وأحوال مجتمعهم ، وليس هذا النهج وليد مدرسة رومانتيكية كانت سـائدة فى هذه الأونة ، ولكن هو الطبع الانسان الصـادق فى حبـه والمتحدث عما يعتلج فى نفسـه من آهات وما يدور فى قلبه من صبابة ، فهو اتجاه عربى أصـيل سـار فى ركبه كثير من الشـعراء ، وحينما تعرف أوباء الغرب على هذا الشـعر الرقيق الذى فاضـت به أذواق الشـعراء العـرب جلسـوا على مائدته ، ونهلوا من معينه جعلوا له خصـائص ونسـمات تتمشى مع ما لديهم مـن امكانات ذوقية تشـابه الى حـد بعيد ما كان سائدا عن الشعراء العذريين .

ثانيا : التغنى بجمال الطبيعة واللجـوء اليها (١) ، وبالنظـر فى

---

(١) راجع الأدب المقارن للدكتور خفاجى ٢/١٦ .

الآثار الأدبية للرومانسيين نرى بأنهم استمدوا جـل نتاجهم الادبى من بين أحضـان الطبيعة وبمشاهدها المختلفة من أشجار وأنهار وبحار وجبال وصحراء وسماء وكواكب وغير ذلك .

فقد عالج الشعراء الرومانسيون ما فيهم من احساس بالحـرمان عن طريق الاتصـال بالطبيعة التى تقع على مشـارف أبوابهم ، أو يستطيعون عن طـريق حبهم الفطرى للمرئيات أن يجـدوا أنفسهم فى حفـرة ما يسمونه « الابدية » وقد كان يحسب البعض من الشـعراء أن يحلموا أحلامهم معتمدين على الخط فى تحقيقها ذات يوم ، ولكنهم بحـق لـم يكونوا يحفلون كثيرا بأن تتحقـق هـذه الاحـلام أو لا تتحقق » (١) .

وحينما نقلب صفحات أدبنا العربى أن الشـعراء العذريين قـد تحدثوا فى هـذا المجـال وسبقوا شـعراء الغـرب فى التغنى بجمال الطبيعة ، فهم أساتذة فى هذا الاتجاه الرقيق الذى ينبعث من المشاعر تجاه ما تراه العين مظاهر خلابة تسر الناظرين وتفرض على الانسان صاحب الذوق السليم أن يتجاوب معها ويندفع فى أغوارها فالطبيعة هى الملاذ الذى لجأ اليه الشـعراء العذريون ، وهى مصـدر الهامهم الذى وضعوا فيه أمالهم وأمانيهم ، ففى جـو الصـحراء الطلق وتحت ظلال الأشجار رسم الشـعر العذرى أروع الصـور حينما خلق شـعراؤه بخيالهم فى السماء الصـافيه والنجوم الزاهرة التى تترجم عن صدقه فى حبه ففى هذا الاتجاه يقول قيس بن الملوح فى ليلاه (٢) :

---

(١) الخيال الرومانسى ٣٣٤ .

(٢) بسط مسامع السامر : ٦٥ .

اذا عبتها شبهتها البـــدر طالعا
وحسبك من عيب يشبه البـــدر
هى البدر حسنا والنساء كواكب
فشتان ما بين الكواكب والبدر
اذا ذكرتها يرتاح قلبى لذكرها
كما انتفض العصفور بلله القطر

فحينما ننظر الى هذه الأبيات يستبين لنا أمر هؤلاء الشـــــعراء وما انطوت عليه نفوسهم من حب عميق واحساس متدفق تجاه من أحبوا فحقا بأى عين ينظرها الشاعر وبأى تعبير يصور لنا هذه المعانى الرائعة، انها قيثارة العاشقين وأنشودة المقيمين الذين لم يستقر لهم مضجع ولم يغمض لهم جفن فهم فى تفكير دائم وبحث متصل فى ليلهم وفى نهارهم، وما جاء به المجنون فى أبياته شاهد صـــــدق على ما يكمن فى دخائله من شعور كبير تجاه من أحب .

فاذا كان الناس جميعا يكبرون هذا الضياء الذى ينبعث من القمر فى ليلة تمامه ويتألق فى سمائه فى مشهد فريد ومنظر جميل يتحدث عنـــه الجميع ولا يعيبه انسان هذا المشهد الفائق يشـــبه ليلى حينما تعاب ، ويقرر ذلك حينما يقول :

« وحسبك من غيب يشبه البدر » وهذا مشهد من مشاهد الطبيعة لا يختلف عليه اثنان ، ثم يذكر لنا صورة العصور الذى يهتز حينمـــا تتساقط عليه القطرات من المـــاء منقلبة يشبه هذا العصور وهو عـــلى عـــــذه الحالة ، وأيضا هذا المنظر من المناظر الطبيعية التي يشـــاهدها العامة ولا يمكن أن ينساها انسان .

وفى هذا السيل الجارف والنهر المتدفق يقول جميل بن معمر (١) :

ألا أيا الربع الذى غـير البلى
عفا وخلا من بعد ما كان لايخلو
تذأب ريح المسك فيه وانما
به المسك ان مرت به ذيلها جمل(٢)
وما ماء مزن من جبال منيعـة
ولا ما أكنت من معادنها النحل
بأشهى من القول الذى قلت بعدما
تمكن من حيزوم ناقتى الرحل(٣)
فما روضة بالحزن صار قرارها
نماه من الوسمى أو ديم هطل(٤)
بأطيب من أردان بثنة موهنـا
ألا بل لرباها على الروضة الفضل(٥)

ففى هذه المقطوعة من شعر جميل تتمثل ظواهر طبيعية رآها هذا الشاعر وحاول أن يرسم لنا فى شعره الرقيق صورة ناطقة عن بعض ما يراه وما وقع عليه بصره وهماء المزن ، والجبال ، والنحـل ، وحيزوم

---

(١) ديوان جميل ١١٠ دار صادر بيروت .
(٢) تذأب الريح : تجىء فى ضعف من هنا وهنا .
(٣) الحيزوم : ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر .
(٤) الحزن : ضد السهل . صاد : عطشان .
(٥) الموهن : نصف الليل أو بعد ساعة منه .
نماه : قصاه . الوسمى : مطر أول الربيع . الديم : الأمطار التى تدوم أياما .

الناقة ، والروضة ، والحزن والوسمى والأديم كل ذلك ماثل فى الوجود وظواهر طبيعية كائنة فى هذا الوجود المحيط بالشاعر .

لذلك ترى الشاعر فتن بهذه المشاهد وعبر لما نفسه من وجدانيات بتلك الصور والرسوم .

ومن قبل أن يندمج شعراء الغرب مع الطبيعة شخص عروة بن حزام الشاعر الاسلامى الجبل وأخذ يتحدث معه وتسلى اليه همومه وأحزانه ويحمله الرسائل الى حبيبته عفراء فيقول (١) :

ألا أيها التل الحبيب
حدث عن العهد الخصيب
وابعث لعفراء التحية
من بعيد أو قريب
أو قل لعفراء التى
أذكت بمهجتى اللهيب
ان ابن عمك مدنف
صب بوحدته غريب

ويتحدث قيس بن ذريح عن لبناه ، فيقول (٢) :

ألا ليت ابنى قد أتى دون قومها
حجاب منيع ما اليه وصول

---

(١) عفراء : ٧١ .
(٢) أغانى دار الكتب ٢٠١ .

فان نسيم الجو يجمع بيننا
ونبصر قرن الشمس حين تزول
أرواحنا بالليل فى الحى تلتقى
وتعلم أنا بالنهار نقيل
وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا
سماء ترى فيها النجوم تجول

تصاحب لبنى يذكر فى أبياته بعضا من الظواهر الطبيعية التى حاول أن يبثها فى عباراته لتكون أقوى فى رسم وجدانه ، وتسجيل هذا الغرام القاتل الذى سيطر على نفسه وحسه ففى البيت الثانى يذكر « نسيم الجو » وهذه العبارة تفيد بأن الشاعر مغرم بالطبيعة والاستمتاع بها وكذلك « قرن الشمس حين تزول » فيها صورة عظيمة رائعة لو رسمت لتهافت الجميع على النظر اليها والاستمتاع بها خاصة قبل لحظات الغروب وفيها فوق جمال المنظر أشياء كثيرة من الايحاءات التى يختزنها الشاعر ولا يريد أن يفصح بها ، وفى بيته الأخير يذكر لنا الصورة الفريدة صورة السماء فى الليل وفيها النجوم تذهب يمينا وشمالا وفى مشهد عجيب وهذا مايؤكد ما قلناه سالفا بأن الشاعر له عشق بالطبيعة ومناظرها المختلفة .

ويتحدث عن الطيور والحيوانات الشاعر المحب كثير عزة حديث العالم بها والناظر اليها فيقول (١) :

ترى الرجل النحيف فتزدريه
وفى أثوابه أسد هصور

---

(١) العشاق الثلاثة ٤٩ د. زكى مبارك .

ويعجبك الطـــرير فتبتليه
فيخلف ظنك الرجل الطرير
بعاث الطير أطـــولها رقابا
ولم تطل البزاة ولا الصقور
خشاش الطير أكثرها فراخا
وأم الصـــقر مقلات نزور
وقد عظم البعير بغـــير لب
فلم يستعن بالعظم البعـــير

ومما قال المجنون أيضا (١) :

دعاك الهوى والشـــوق حين ترنحت
هتوف الضحى بين الغصون طروب (٢)
تجـــاوب ورقا قد أرعن لصـــوتها
فـــكل لـــكل مســـعد ومجيب (٣)
ألا يا حمـــام الأيك مالك باكيـــا
أفارقت . . . أم جفـــاك حبيب (٤)

ففيما قدمنا من نماذج شعرية الدليل واضح على أن الشـــعراء العرب قد سبقوا غيرهم فى التغنى بجمال الطبيعة والحـديث عنها لأنهم

---

(١) بسط مسامع السامر ٥٩ .
(٢) ترنمت : الحمامة تتلذذ بصوتها . والهتوف : نوع من الحمام .
(٣) الورق : نوع من الحمام .
(٤) الأيك : المكان الذي به أشجار .

وجدوا فى ذكرها الراحة والسلوان وسكب ما فى أعينهم من زفرات بين أحضان الطبيعة بكل مظاهرها .

ثالثا : الثورة على القديم والاتيان بلون أدبى جديد ، وذلك باعداد الأدباء الذين يبشرون بعالم أفضل ، وهو بهذه المثابة معنى باقامة أسس جديدة تلائم أهدافه لتصبح معالم فى الطريق للمجتمع (١) .

يكاد يكون هذا الاتجاه يشابه الى حد بعيد الأهداف التى من أجلها نشأ الشعر العذرى ، فهو أيضا ثورة على القديم وبعث شعر رقيق يتغنى به الشاعر فى ثياب جديدة تلفظ ما كان فى الأزمنة الغالفة من اباحية مطلقة لا تقف عند حد ولا يتورع عن كشف الأستار ، ان الشعر العذرى بما يحمل من آهات وما يحتويه من معان نبيلة تنشد الخير وتنادى بوضع حد لما كان سائدا من قبل .

لقد نادى العذريون بالمساواة ونبذ العداء ونشر الحب والوئام والتخلى عن الماضى الأثيم فى أشعار رقيقة تفيض جمالا وجلالا بما بما تحمله من قدرية كما نرى ذلك فى قول امام العذرين عروة بن حزام (٢) :

فيا عم يا ذا العذر لا زلت مبتلى
حليفا لهم لازم وهوان
غدرت وكان الغدر منك سجية
فألزمت قلبى دائم الخفقان

---

(١) راجع مذاهب النقد وقضاياه للدكتور عبد الرحمن عثمان ٣٤٠ .
(٢) ذيل الأمالى ١٥٩ دار الآفاق الجديدة بيروت .

وأورثتنى غما وكربا وحسرة
وأورثت عينى دائم الهملان
فلا زلت ذا شوق الى من هويته
وقلبك مقســـوم بكل مكان
وانى لأهوى الحشر اذ قيل أننى
وعفراء يوم الحشر ملتقيان

فالشاعر غائر على عمه الذى حال بينه وبين خليلته ، مما جعـــل الشاعر يتنفس هذه الزفرات الحارة ، ويلوم عليه هذا التصرف الخسيس الذى ألزم الحسرة وأسقاه كأس الهزال ، وهكذا يمضى الغزل العذرى فى ركب التحديد والرقة التى لم تؤلف من قبل أو لم يكن لذلك دعاه فى الشـــعر القديم .

ويقول جميل بن معمر (١) :

كأن دموع العين يوم تحملت
بثبته يسقيها الرشاش معين
ظعائن ما فى قربهن لذى هوى
من الناس الا شـــقوة وفنون
وواكلنـــــه والهم ثم تركنه
وفى القلب من وجد بهن حنين
ورحن وقد أودعن قلبى أمانة
لبثنة سر فى الفـــؤاد كمين

---

(١) الديوان ١٢٧ ، ١٢٨ .

كسر الندى لم يعلم الناس أنه
ثوى فى قرار الأرض وهو دفين
اذا جاوز الاثنين سر فانه
نبث وافشاء الحديث قمين
تشيب روعات الفراق مفارقى
وأنشزن نفسى فوق حيث تكون
فواحسرتا ان حيل بينى وبينها
وياحين نفسى كيف حين تحين
وانى لأستنعش وما بى نعمة
لعل لقاء فى المنام يكون

ويقول مجنون ليلى (١) :

أيا حب ليلى لا تفارق مهجتى
ففى حبها بعد الممات قريب
أقام بقلبى من هواها صبابة
وبين ضلوعى والفؤاد وجيب(٢)
فلو أن مابى بالحصى فلق الحصى
وبالريح لم يسمع له هبوب
ولو أن أنفاس أصابت بحرها
حديدا لكانت للحديد تذيب
ولو أن ليلى فى العراق لزرتها
ولو كان خلف الشمس حين تغيب

---

(١) بسط مسامع المسامر ٩٣ .
(٢) الوجيب : هو من وجب القلب أى رجف وخفق .

أحبك يا ليلى غراما ومعشقا
وليس يرى فى الوصال نصيب(١)
أحبك حبا قد تمكن فى الحشا
ودب هواك فى العظام دبيب
أحبك يا ليلى محبة عاشق
أهاج الهوى فى القلب منه لهيب

فالناظر فى هذه النماذج التى قدمناها يرى أن الشعر العذرى بما يحمله من آهات وزفرات جديد فى مضمونه وعباراته ، فهو يلفظ ما كان سائرا من اباحية فى التعبير حينما كان يخاطب الشاعر من أحب ويدعو انى الحفاظ على الحبيب ويرى أن ذلك من أسمى الغايات التى يرنو اليها ويتحدث الشاعر عنها .

والشاعر العذرى يضه هالة من الفخار والكرامة لمن أحب فهى بعيدة الوصال كريمة النفس ومن هنا رأينا الآلام تشتد على هؤلاء من الشعراء ويتحدثون عن الأحبة حديث المحافظ على الشرف المترفع عن الغابات الحيوانية والمتأمل فى صنع الله الذى منحها الجمال الحسى والمعنوى ، وفى ذلك دليل قوى على الجدة التى ظهرت فى سماء الشعر العذرى .

رابعا : التشاؤم والكآبة ومصاحبة الآلام والأحزان والفزع الى الدموع والزفرات (٢) .

---

(١) العنق : هو الافراط فى الحب .
(٢) راجع أصول النقد للدكتور خفاجى ٥١ .

ففى هذا الاتجاه نجد شعراء بنى عذره ساروا فى نفس الطريق ؛ ومن هذا المنطق غرد الشعراء قصائدهم الذاتية ، فتمثل هـــذا الاتجاه الرومانسى فى شعر كثير من المعذريين فهم دائما فى قلق واضطراب حليفهم الملغل يفضى بهم فى كثير من الأوقات الى السآمة فيشـــــكون الزمان ويشكون حظهم التعس ، كأن الدنيا تحالفت على أن تحول بينهم وبين من يرغبون فلذلك كثر لديهم التشاؤم والملل يقول عروة بن حـــزام العـــذرى (١) :

ألا يا غرابى رمنة الدار بينـــا
أبا الهجر من عفـــراء تنتجيان
فان كان حقا ما تقولان فاذهبا
بلحمى الى وكريكما فكلانى
كلانى أكلا لم ير النـــاس مثله
ولا تهضما جنبى ولا تزدرانى
ولا يعلمه الناس مكان قصتى
ولا يأكلن الطـــير ما تذران

ويقول قيس بن ذريح :

ألا يا غراب البين ويحك بينى
بعلمك فى لبنى وأنت خبير
فان أنت لم تخبر بشىء علمته
فلا طرت الا والجناح كســـير

---

(١) ذيل الأمالى والنوادر ١٦٠ .

ودرت بأعداء حبيبك فيهم
كما قد ترانى بالحبيب أدور

وللنظر الى المجنون فى حيرته واضطرابه وما يعتريه من يأس وملل فى قوله (١) :

أصور صورة فى التراب منها
وأبكى ان فى قلبى عذاب
وأشكو هجرها منها اليها
شكاية مدنف عظيم المصاب
وأشكو ما لقيت وكل وجد
غراما بالشكاية للتراب

وفى قوله :

فوالله ما أدرى علام هجرتنى
وأى أمورى فيك يا ليل أركب
أأقطع حبل الوصل فالموت دونه
أم أشرب رفقا منكم ليسر يشرب (٢)
أم أهرب حتى لا أرى لى مجاورا
أم أفعل ماذا أم أبوح فأغلب

ويقول جميل بن معمر صاحب بثينة (٣) :

---

(١) بسط مسامع المسامر ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) رفقا : كدرا .
(٣) الديوان ٢٩ .

لقد ذرفت عينى وطال سفوحها
وأصبح من نفسى سقيماصحيحها
ألا ليتنا نحيا جميعـــا وان نمت
يجاور فى الموت ضريحى ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب
اذا قيلقد سوىعليها صفيحها(١)
أظل نهارى مســتهاما ويلتقى
مع الليل روحى فى المنام وروحها
فهل لى فى كتمــان حبى راحة
وهل تنفعنى بوحة لو أبوحهــا

وللنظر أيضا الى هذه الزفرات الحارة فى قول جميل (٢) :

وانى لأستبكى اذا ذكر الهدى
اليك وانى من هواك لأوجــل
نظرت ببشر نظرة ظلت أمترى
بها عيرة والعين بالدمعتكحل(٣)
اذا ما كررت الطرف نحوك رده
من البعد فياض من الدمع يهمل
فيا قلب دع ذكرى بثينة انها
وان كنت تهداها تضن وتبخل
وقد أبأست من نيلها وتجهمت
وللبأس ان لم يقدر النيلأمثل

---

(١) الصفيح : حارة عراض رفاق والمراد حجارة القبر .
(٢) الديوان ١٠٣ .
(٣) امترى : استخرج .

فاننا نرى أن الحرفة والألم والحزن تسيطر على الشـــاعر مما جعل نفسه تفيض بهذه العبارات المنبعثة من بين جـــوانحه المكلومة ، فالأمر يتضح لنا من خلال هذه النماذج وما كان يدور بين جوانب هؤلاء الشعراء ، فالألم والحسرة والتشاؤم كل هذه الأمور وجدت لدى شعراء بنى عـــذرة .

فالأدب الذاتى الرقيق المنبعث عن عاطفة جياشة تمثل غاية التمثيل فى شعر القدريين فليس هو وليد الحركة الرومانسية الجـــديدة فى بلاد أوربا ولكن وجد فى الشعر العربى وخاصة شعر المقيمين من بنى عـــذرة الذين ظلوا يرددون زفراتهم الحارة وينشدون الحب فى طهر وعفةفليس الأمر كما يدعى الغرب بأنه أدباءه هم الذين كشفوا عن هذه الخصاص وأودعوها فى نماذج من أشعارهم هذا اذا كانت الأفضلية من حيثالسبق ولكن لا بد من كلمة حق تقال فى هذا المجال وهى أن الأدب هو نتـــاج فكرى يتطور بتطور الأمة والدرجة التى وصلت اليها فى الحضـــارة والتقدم وكل أديب له ذوق خاص قد يتفق أو يخال غيره ، والشـــعر الغنائى الذاتى لا يقتصر على أنه دون غيرها فتلك طبيعة انسانية ، ومن هذا المنطلق يصح لنا أن نقول : اذا كان هناك شعراء فى الأدب العربى تغنوا بعواطفهم وعبدوا عن ذواتهم فى شعر رفيق أخاذ فأيضـــا للأمم الأخرى أدباء عبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم فى نماذج أدبية رقيقة طالمـــا هذا الأمر من طبيعة الانسان فى كل زمان وفى كل مكان ، والشاهد على ذلك تلك السمات الهامة أو الملامح المشتركة التى تتوافق الى حـــد بعيد بين الرومانسية والعذرية والتى سبق الحديث عنهما ومناقشـــة نصوصها التى سيطر عليها الذاتية والرقة والعذوبة تحتظلالالرومانسية العـــذرية .

د. تمساح على أحمد أحمد نحيلة
مدرس الأدب والنقد